الاستاذ جبر ضومط

ومباحثهُ في نشوء اللغة العربية

وجدنا هذه المقالة في اوراق المرحوم الدكتور صروف وكان قد كتبها ليتلوها في حفلة تكريم الاستاذ ضومط . ننشرها الآن لان قرار لجنة التكريم قد استقر على اقامة الحفلة في ٢٨ ابريل كما ذكرنا في مقتطف ابريل الماضي

للشيخ اوقات يود فيها انقضاء الاجل ويقول مع ليد

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف ليدُ

وهي اوقات الضعف واوقات المرض واوقات فقد الاخلاء والاقارب. ولهُ اوقات غبطة وحبور اوقات يرى فيها تحقيق امالي الشباب او يجني ثمر ما غرسهُ زمن الكهولة او يسمع عن فوز رفاقهِ واصدقائهِ ومحبيهِ

كل ذلكم مرَّ عليَّ وأبقى اثرهُ في نفسي . تولاَّني الضعف في سني حتى صرت اتجنب المجتمعات ومرضت في بداءة العام الماضي حتى قطع الرجاء مني وفقدت والديَّ واخويَّ وثلاثاً من اخواتي وجمًّا غفيراً من تلاميذي واصدقائي

ولكن هذه المساوئ تقابلها نِعَم كثيرة حييتُ بها ومنها ما دعاني الى كتابة هذه السطور وهو ان احد تلاميذي في الصغر ورصفائي في الكبر بلغ بسعيهِ وجدهِ درجة اهَّلتهُ لان يحتفل بهِ عارفو فضلهِ في بلادهِ وفي سائر البلدان حيث انتشر تلاميذهُ وقرئت كتبهُ وعرفت آراؤهُ اللغوية

صديقي الاستاذ جبر ضومط بل الفتى جبر ضومط رأيتهُ منذ ثمان وخمسين سنة. ذهبت الى برج صافيتا او صافيتا البرج في صيف سنة ١٨٦٩ واقمت فيها اكثر من شهر ولا تزال صورتها في ذاكرتي لانها ممتازة ببرج شاهق مبني بحجارة جافية لم ارَ اكبر منها الاَّ الحجارة الكبرى في قلعة بعلبك . ارتفاع هذا البرج اكثر من ثلاثين متراً او نحو ارتفاع برج الساعة في هذه الجامعة وطولهُ اكثر من ثلاثين متراً وعرضهُ نحو عشرين ونحن لجدرانهِ — وهنا المزية الكبرى — ثلاثة امتار الى اربعة حتى ان السلَّم الذي يصعد بهِ الى طبقتهِ العليا والى سطحهِ قائم في باطن جدار من جدرانهِ وحول هذا البرج مبان ضخمة حجارتها كبيرة منحوتة باقية من قلعة قديمة بناها الصليبيون اما البرج فلعلهُ بني في عهد الفينيقيين او الرومان

بناء مثل هذا ترتسم صورتهُ في الذهن ولاسيما في ذهن الشاب قبلما تكثر مشاغل الحياة وترسخ سمتهُ صورة كل ما حولهُ ليتصل به . وقد مرَّ عليَّ الآن ثمانٍ وخمسون سنة ولا إزال اتذكر صافيتا وكل ما رأيتهُ بها او الذين لقيتهم من سكانها فلا يؤثر منظر البرج العالي في نفس ولد من ابناء تلك القرية يراهُ كل يوم من حين أيقظتهُ امهُ النائم ويحملهُ على طلب المعالي

كانت اقامتي في غرفة على تل مقابل للبرج والى جانبها مدرسة صغيرة لاولاد القرية انشأها المرسلون الاميركيون يعلّم فيها رجل من اهل الشوف وبين تلامذته ولد لم انس صورتهُ لانهُ انتقل بعد ذلك الى مدرسة عيه فكنت اراهُ فيها ثم صار تلميذاً لي في هذه الخامسة وخلفني في تدريس العربية وآدابها . ولم يفتح بالخطط التي سار عليها اسلافهُ بل اختط خطة مبتكرة في الدرس والتدريس

***

هذه بمقدمة طويلة اطول من كل مقدمة كتبتها . ولكن لا تخافوا ان آتي بعدها بكلام مسهب لانني اعلم ان الوقت نحدره ولو كان الموضوع حقيقاً بالاسهاب

الاستاذ جبر ضومط لو اكتفى بنظم الاشعار كما كان ينظم يُعَيِّد رحلته الى السودان او بتعليم الصرف والنحو والبيان كما يعلمها كثيرون غيرهُ لما استحقَّ في رأيي ان يحتفل به عدا الاحتفال ولو قضى في التعليم سنين ستة لا خمسين او لما وجدتُ سبيلاً لالقاء هذه الكلمة عنهُ . ولكنهُ عمل ما هو اعم من ذلك كثيراً بحثَ في نشوء اللغة العربية بحثاً احسبهُ مبتكراً عندنا وممهداً لعمل اعدَّهُ من انفع الاعمال

المشتغلون بالعلم كثيرون ولكن قلَّ منهم من يبقي اثراً يذكر به . فالذين اشتغلوا بقواعد العربية منذ الف ومائتي سنة الى الآن يعدون بالمئات او بالالوف ولكن قلما نذكر منهم غير سيبويه والمبرد والكسائي وابن جني وابن مالك وابن هشام واشباههم من الذين وضعوا قواعد الصرف والنحو ومع ذلك نجعل هؤلاء كلهم متصور على الجمع والتبويب وما منهم من بحث عن اصل العربية وكيف نشأت كلماتها وتصاريفها . فاننا صرنا لا نعلم في هذا العصر ان لغات البشر التي تعدُّ بالالوف كانت في زمن متوغل في القدم لغة واحدة قليلة الكلمات بسيطة الاصوات ثم تفرقت طوائف وكل طائفة تشعبت شعباً كثيرة ودخل المزج والنحت في كلماتها حتى بلغت ما بلغتهُ وهذا شأن العربية ولكنني لا اعلم ان احداً اطلق هذا البحث على العربية من ابنائها قبل الاستاذ جبر ضومط

الذين تعلموا الصرف والنحو وعلّموهما لا يحصى عددهم ولكني لم ارَ لاحد بحثاً في كيف بني الفعل كجلس على فتح آخره ولا كيف تدخل عليه الهمزة فيصير متعدياً بعد ما كان لازماً ولا من اين اتت التاء التي تلحق الفعل الماضي فتدلُّ على المتكلم اذا كانت مضمومة وعلى المخاطب اذا كانت مفتوحة وعلى المخاطبة اذا كانت مكسورة. ومثل ذلك كل تصاريف الافعال مجردة ومزيدة مفردة او ملحقة بالضمائر فانها كلها بلغت صورها المعروفة بعد ان دخلها المزج والنحت مدة قرون لا تحصى. والاستاذ ضومط تمكن من البحث في هذا الموضوع وكشف الستار عن غوامضه لمعرفته العبرانية والسريانية شقيقتي العربية ولو عرف الحبرية والحبشية لزاد توسعاً في البحث وكشفاً للغوامض فهو مثل بورز وليل في علم الجيولوجيا وتولد طبقات الارض ومثل لامارك وداروين في نشوء الاحياء وتولد بعضها من بعض ومثل مندل في كشف ناموس الوراثة وتطبيقه على الاحياء

اليكم بضعة امثلة من كتابه الخواطر في اللغة الذي نشره منذ اثنتين واربعين سنة فانهُ وجد اولاً بالاستقراء ان الكلمات المتشابهة في مخارج بعض حروفها تتشابه في معانيها كخدع وجدع وجدم وجذم وكحض وحبط. وكهجأ وهجع وكتم وكثم وكثر وختر وختل وكقطب وقطف. وارتأى ان ذلك كان سبباً لتولد كلمات مختلفة لفظاً ومشتركة معنى. ووجد ان وزن المطاوعة (انفعل) مركب من لفظة انا ضمير المتكلم والفعل المجرد فقولنا انفستُ مساوٍ لقولنا انا غمستُ او غمست نفسي. ووزن انفعل اصلهُ افعل كما يلفظهُ المصريون وهو مركب من انت ومعناها ذات او نفس وهي إت في العبرانية ويت في السريانية وعليه ففعل المطاوعة مركب من الفعل المجرد وكلمة معناها النفس. اما وزن استفعل فقال انهُ مطاوع قياسي لوزن سفعل عند السريان ورجح ان السين منحوتة من فعل سمات يدل على الوجود المطلق ومن بقاياهُ ليس ولات وهما مؤلفتان من لا النافية والفعل المذكور للدلالة على نفي الحال او الكون وعلى ذلك تكون استفعل مركبة من ثلاث كلمات وهي اس وات وفعل فلاحت اعجاؤها مع الايام فصارت استفعل

ومن هذا القبيل تعليلهُ للضمائر فان لضمير المتكلم في العربية صورة واحدة وهو انا مفرداً ونحن جمعاً. وفي السريانية انا مفرداً ونحنن جمعاً وفي العبرانية اني او انوخي مفرداً وانحن او نحن او انو جمعاً وواضح من ذلك ان لفظة نحن العربية مركبة من نا او انوخي العبرانية الحق آخرها بالنون للدلالة على الجمع

ثم بيّن ان الضمائر المتصلة منحوتات من الضمائر المنفصلة فالتاء المضمومة من انوخي والمفتوحة من انتْ والمكسورة من انتِ والواو من همون او همو والنون في ضمن من همْ وانا من نحنْ وهلم جرًّا

وكتاب الخواطر على صغره جمع اكثر المبادئ الاولية التي تمشت عليها اللغة في نشوئها . وهو بحث مبتكر في العربية على ما اعلم . طرقتهُ انا في السنة التي طرقهُ فيها صديقي الاستاذ جبر كما يرى في الفصول التي انشأتها في المقتطف سنة ١٨٨٦ وموضوعها تولّد اللغات ونحوها ولم اكن اعلم ما هو فاعل ولا هو يعلم ما انا فاعل ولكني اطلقت اكثر الكلام على اللغات كلها ولم اخص به العربية ولم اكن اعرف السريانية والعبرانية حتى استعين بهما على تعليل ما وقع في العربية ولم ارَ بعد ذلك بحثاً لاحد في هذا الموضوع كان آية الحجاب سُدلت عليه . الاّ ان ما اثبتهُ صديقي الاستاذ ضومط في كتابه الخواطر شبيه بما كشفهُ مندل في الوراثة فان مباحث هذا الراهب النمسوي التي نشرها سنة ١٨٦٦ طرحت في زوايا المنسيات مع انهُ كشف بها اهم الحقائق البيولوجية الى ان كشفت ثانية سنة ١٩٠٠ فهل يقوم من تلاميذ الاستاذ ضومط من يعود الى هذا البحث ويكون متضلعاً من العربية والعبرانية والسريانية ومن الحميرية والحبشية والقبطية واليونانية واللاتينية والفارسية فيميط اللثام عن تاريخ كل الكلمات التي في معاجمنا العربية . هذا ما ينتظر منكم يا تلاميذهُ ويا مريديه

قلتُ في بدء كلامي بعد المقدمة ان الاستاذ ضومط بحث في نشوء اللغة العربية بحثاً مبتكراً وممهداً لعمل اعدَّهُ من انفع الاعمال فما هو العمل الذي اعدَّ بحث الاستاذ ضومط ممهداً لهُ

اذا كانت اللغة العربية قد نشأت كما تنشأ كل الاجسام الحية واعتورها التغيير والتبديل كما اثبت الاستاذ ضومط فلا يحتمل ان يمرَّ الف واربعماية سنة تبقى فيها على حالها تماماً . والواقع انهُ عرض لها امران جوهريان الاول انها تغيرت تغيراً كبيراً في ألسنة المتكلمين بها في مصر والشام والعراق وتونس والجزائر وبلاد العرب نفسها حتى لا يكاد ابن الشام يفهم حديث ابن تونس ولا يكاد ابن المغرب الاقصى يفهم كلام ابن العراق . الاّ ان هذا التباين يكاد يكون محصوراً في الكلام وقفما تناول الكتابة ويحتمل ان يزول اكثرهُ بعد ما سهلت سُبل الاتصال وانتشرت الجرائد والمجلات

والامر الثاني وهو المهم انهُ دخل العربية كثير من لغات الاقوام الذين صارت

العربية لتفهم ان الذين نُقلت العلوم من كتبهم الى العربية . ولقد كان الدخيل كثيراً في العربية قبل الاسلام لانهُ لا يحتمل ان يتصل العرب بسكان مصر والشام والعراق وفارس كما كانوا متصلين ولا يدخل العربية كثير من الكلمات المصرية واليونانية والسريانية والعبرانية والفارسية ولو حقق علماء العربية اصل كثير من كلماتها لخسيوها كلها من صميم العربية . وهذا بحث كثير الشؤون لا محل لهُ الآن . ثم زاد الدخيل بعد افتتح ونقل العلوم من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية ولو لم يعلم جامعو كتب اللغة انهُ دخيل . هاكم قانون ابن سينا الذي الفهُ في بداءة القرن الخامس بعد الهجرة فقد عددت في الصفحة الاولى من جزء الاقرباذين مائة اسم من اسماء النباتات وسائر المواد الطبية فوجدت الدخيل منها لا يقل عن سبعين اسماً وقد ذكرها ابن سينا كلها كأنها اسماء مألوفة في ايامه

القرن الثالث والرابع والخامس والسادس كانت من القرون الحافلة بالعلم والعلماء كما كانت حافلة بالشعراء والادباء وكان العلماء من اطباء ورياضيين وفلكيين يرحبون بكل كلمة اجنبية تزيد غنى العربية غنى وكان الادباء والشعراء لا يستكثرون من استعمال المعرَّب

ومنذ قام محمد علي عزيز مصر وعلَّم بعض ابنائها في اوربا وامر بترجمة الكتب العلمية الى العربية كما فعل الخليفة المأمون في عصره دخل العربية كثير من الكلمات العلمية ثم اتسع نطاق الترجمة حتى شمل كل انواع العلوم الرياضية والطبيعية والحقوقية والسياسية وصار على المترجمين والمؤلفين ان يحذوا حذو الفارابي وابن المقفع وابن سينا وابن رشد فيسموا الكلمات العلمية على وضعها وهي قد بالالوف وعشرات الالوف ومائة الالوف فتغنى العربية بها ويسهل على المتعلمين تناولها او ان يفتشوا عن مرادف لها في العربية ويهملوا ما لا يجدون لهُ مرادفاً وما تعذر ترجمتهُ . وقد ثبت من بحث الاستاذ ضومط في كتابه الخواطر ان العربية كانت في كل عصورها الماضية قابلة حيَّة نامية . ويظهر بادئ بدء ان هذا الغزو مستمرٌّ الى الآن افيحسن بنا ان نقف الآن في سبيله موجسين شرًّا لئلا يدك مقام العربية ؟ لا يا سادتي واخواني العربية قادرة بتصاريفها وتراكيبها لا بالاسماء التي تدخلها فقد دخلها الوف من الكلمات السريانية والعبرانية والمصرية واليونانية ولم تزدها الا غنى وستدخلها الوف اخرى ولا تزيدها الا غنى وها اسرة باللغة الفرنسوية والانكليزية والالمانية وكل اللغات المشهورة . والكلمات تتنازع البقاء مثل الاحياء ولا يمكث منها الا ما ينفع الناس فلا تكونن عثرة في سبيلها

الكولونل لورنس

المشهور في اوربا بملك العرب غير المتوّج

مقتطف مايو ١٩٢٨

امام الصفحة ٥٠٩